

النفاق والمنافقين

الشيخ محمد محمود ندا

الخطبة الخامسة

الحمد لله . . عالم السر والنجوى يعلم ما تكنه الأنفس وما تخفيه الصدور . . . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . له الملك وله الحمد . . يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير وإليه المصير . . . وأشهد أن سيدنا وحبیبنا محمدًا رسول الله . . . الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير . . . اللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه وصاروا على منهاجه فكانوا هم الفائزين .

أما بعد

فقد عرفنا في الجمعة الماضية أن المنافقين كانوا يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ويسخرون منهم، بل كانوا كذلك يطعنون في عدالة النبي صلى الله عليه وسلم في توزيع الصدقات أو توزيع الغنائم، وذلك راجع إلى أنهم يجرون وراء المادة والمكاسب الدنيوية بدون أن يعملوا لها وبدون أن يبذلوا فيها عرقًا أو جهدًا (فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون).

ولقد كشفت المعارك الإسلامية طواياهم وأزاحت الستار الذي كانوا يتسترون به وهم يسعون إلى هذه المكاسب الرخيصة بدون عرق أو بذل جهدًا في ميدان القتال، فكانوا يقربون ويفرون، وكلما نادى مناد أن حي على الجهاد، ارتعدت فرائصهم وتزلزلت أقدامهم وفقدوا تماسكهم وبدوا في صورة تزرى بأقذار الرجال. وقد صورهم الله تعالى في تلك الصورة المخزية وكأننا نراها بأعيننا، يقول الله تعالى: (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف). ولكن هؤلاء لا طاعة عندهم ولا قول معروفًا يبذلونه في مثل هذه المواقف، بل إنهم ينطلقون بسرعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه بأعذار واهية ليغفيمهم من الخروج إلى القتال أو يعفيهم من البقاء معه في الميدان (وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين).

وقد ضرب القرآن الكريم لنا نماذج من تلك المخازي وتلك المعاذير الواهية التي كانوا يعتذرون بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعفيهم مما أدّوه من اعتذارات حتى لو كان يعلم أنهم كاذبون فيها.

ضرب الله تعالى لنا نموذجًا منهم في يوم الأحزاب، فإنهم لما رأوا جموع الأحزاب قد أحاطوا بالمدينة من كل جانب، وهم مضطرون للوقوف في الميدان، انطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: "إن بيوتنا عورة"، أي إن بيوتنا مكشوفة ويخشى أن يدهمها العدو ونحن عنها غافلون. ولم تكن هذه هي حقيقة الأمر، وإنما هو الخوف والجبن يحملهم على الفرار. ولذلك يقول الله تعالى كاشفًا عن مخازيهم: (وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا). فهذا مجرد عذر يهربون به من أعباء القتال.

ثم كشف مخازيهم مرة أخرى عندما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحرك لمحاربة الروم فيما عُرف بغزوة تبوك. روى عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لواحد من هؤلاء المنافقين اسمه الجد بن قيس، قال له: "هل لك يا جد في جلد بني الأصفر"، أي في محاربة الروم. فقال له: "يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد علم قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن". رجل معجب بالنساء وأنه إذا رأى نساء الروم فإنه لا يصبر عنهن أبدا. وهذا عذر أقبح من الذنب. فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن أعرض عنه وقال له: "قد أذنت لك". وفيه وفي أمثاله أنزل الله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).

وما كان اعتذار هؤلاء المنافقين عن الخروج للحرب ناشئًا عن ضعف بدني أو قلة في المال أو فقر مالي، لم يكن ناشئًا عن هذا، وإنما هي ضريبة الذل يدفعها هؤلاء من نفوسهم المهينة. ذلك أن النفوس المهينة تأبى تحمل الأعباء والتكاليف، وترضى بالمنزلة الدون. إن أعباء الكرامة والشهامة أعباء ثقيلة ثقيلة التكاليف، وهؤلاء لا يطيقون أن يتحملوا تكليفًا من هذه التكاليف. ولذلك يهربون منها ويفرون، كما يقول الله تعالى: (وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ)، أي أولو السعة والقدرة. استأذنتك أولو الطول منهم وقالوا: "أذنا نكن مع القاعدين" — أي اتركنا نقعد مع القاعدين.

ومن هؤلاء القاعدون الذين يطلبون القعود معهم إنهم النساء والضعفاء والمرضى والأطفال. فهؤلاء الناس، لجبنهم وضعفهم وخورهم ومهانتهم، لا يريدون أن يكونوا مع الرجال الأقوياء والشجعان، وإنما يريدون أن يكونوا مع هذا الصنف من القاعدين الذين اضطروا للقعود. أما المنافقون فلا ضرورة عندهم ولا عذر، كما يقول الله تعالى: (رَضُوا أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ).

وفي آية أخرى يقول الله تعالى: (رَضُوا أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

ولو أنهم كانوا يعلمون أن السفر إلى المعركة سفر قريب، وأن المعركة مضمونة النتائج، للهثوا وراءكم وساروا معكم إلى ميدان القتال. ولذلك يقول الله تعالى: (لو كان عرضاً قريباً و سفرًا قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله)، أي: يعني يزيدون عن الاعتذار بالآيانات الكاذبة، (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون). وقد كان تخلف هؤلاء المنافقين عن معارك الجهاد ومعارك الكرامة والشهامة كان تخلفهم يحز في نفوس المسلمين ويتضايق المسلمون من أجل تخلف هؤلاء عن الذهاب والسفر معهم. ولكن الله سبحانه وتعالى يبين للمؤمنين المجاهدين أن تخلف هؤلاء الناس كان في صالح المؤمنين المجاهدين، بل هو كذلك في صالح الدعوة الإسلامية، لأن القلوب الخائرة تثبت الخور في النفوس القوية، وأن النفوس الخائنة إنما هي أخطر شيء على الجيوش في ميدان القتال. وأن هؤلاء الناس لو خرجوا معكم إلى الميدان ما زادوكم قوة، بل زادوكم خبلاً وضعفاً، لأنهم إنما يضعون الفتنة في الصفوف ويخربون بين الناس. فلذلك كان عدم خروجهم من مصلحتكم معشر المؤمنين. (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين).

وتاريخهم شاهد على ذلك، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. ثم يكشف القرآن مرة أخرى عن مخازيهم بالنسبة لمعارك الإسلام مع أعداء الإسلام، وذلك فيما عُرف بصلح الحديبية.

دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يخرجوا معه لأداء العمرة في مكة المكرمة، فخرج معه من خرج، وقعد هؤلاء المنافقون. لماذا قعدوا ولم يخرجوا، لأنهم ظنوا ظناً سيئاً بالله أن المسلمين سيهزمون لا محالة، لأنهم يذهبون إلى عرين الأسد، يذهبون إلى قریش في عقر دارها، فكيف نأمن على أنفسنا إذا ذهبنا إلى هناك، وهكذا تخلفوا عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم، مع أنه لم يكن خارجاً لمعركة، وإنما كان خارجاً لأداء عمرة. ولكن ظنهم السيئ بالله هو الذي جعلهم يقفون ذلك الموقف المخزي.

ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعاد موفور الكرامة رافع الهامة، وفي أثناء عودته من الطريق أنزل الله تعالى عليه **سورة الفتح**، وفيها يخبره بما سيقوله المنافقون، لا ما قالوه بالفعل، وإنما يخبره بما سيقولونه بالفعل عندما يعود النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة. يخبره بما سيقولون من اعتذارات لا قيمة لها، فيقول الله تعالى: **(سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا)** أي: الذي منعنا من الخروج معك إنما انشغالنا بأهلنا وأموالنا. وهل هذا عذر يمنع الإنسان من تحمل تكاليف الجهاد في سبيل الله؟ كلا. فإن الناس جميعاً لهم أموال ولهم أهلون، ولو أن كل إنسان اعتذر بأنه مشغول بأهله وبماله، ما قام بأعباء الجهاد وتكاليف العقيدة أحد في هذه الدنيا على الإطلاق. فالجهاد يحتاج إلى تكاليف وأعباء ويحتاج إلى تضحية، فليس شغلهم بالأموال والأهل هو الذي يمنعهم من ذلك، وإنما هو خور العزيمة وضعف العقيدة.

ثم مع ذلك يطلبون من النبي أن يستغفر لهم. فاستغفر لنا، وليسوا صادقين حتى في طلب الاستغفار، **يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم**. إن الذي يمنعهم من الخروج ليس الانشغال بالأموال والأهل، وإنما هو شيء آخر تكشفه عنه الآيات التي تأتي بعد ذلك، وهو أنهم ظنوا ظناً سيئاً أن محمداً ومن معه لن يرجعوا سالمين إلى المدينة، كما يقول الله تعالى: **(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً، وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً زورا)**. كنتم قوماً هالكين بسبب هذا التخاذل وبسبب هذه المهانة.

ثم إن هؤلاء الناس قد يطلبون منك الخروج معهم في موضع آخر حينما يأمنون من أن يقتلوا أو حينما يظنون ظناً راجحاً أن وراء خروجهم معك غنائم كثيرة يحظون بها مع هؤلاء المجاهدين الأبرار.

لذلك يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: لا تقبل منهم أن يخرجوا معك. سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغامراتنا: **"زرونا نتبعكم"**، الآن دعونا نمشي معكم، ذرونا نتبعكم. (يريدون أن يبدلوا كلام الله) يريدون أن يبدلوا كلام الله، يأبى الله سبحانه ذلك ويقول له: **"قل لهؤلاء الناس لن تتبعونا"**. كذلك قال الله من قبل، لكن إن قلتم لهم ذلك فإنهم يدعون أنكم تحسدونهم من أجل ذلك تمنعون خروجهم حتى لا يشاركوكم في الغنيمة. فيقولون: **"بل تحسدوننا"**. بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً.

ثم يقول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: إن هؤلاء الناس مطرودون من الصف الإيماني، وأنت لا تقبل منهم شيئاً، وإن حاولوا أن يخرجوا معك فلا تخرجهم معك.

فإن رجعتك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك بالخروج فقل: **"لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً، إنكم رضيتم بالقعود ولا مرة، فاقعدوا مع الخالفين"**. وبذلك لا يستحقون الكرامة لا من الله ولا من الناس بعد ذلك. ولذلك يقول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: **(ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون)**.

وما أكثر أمثال هؤلاء المنافقين بين المسلمين في زماننا هذا، الطامعين في المكاسب الدنيوية،
الفارون من أعباء الجهاد في سبيل الله. يريدون أن يقعدوا وأن يكسبوا، يريدون المذلة والهوان.
(وإذا استنهضوا للقتال لا ينهضون، وإذا ذكروا لا يذكرون بل يقولون بل تحسدوننا لأنهم لا
يفقهون قليلاً أو كثيراً). هكذا أيها الناس أمثال هؤلاء المؤمنين، ولذلك ندعوهم بدعوة الله لأولئك
المخلفين، يقول الله تعالى: (قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد،
تقاتلونهم أو يسلمون. فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم
عذاباً أليماً).

أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين.